التصوف الإسلامي
رسالته وقواعده

للأستاذ الدكتور أحمد غلوش

٤

الفناء عند الصوفي ومقارنته بالفناء لدى البوذيين :

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا أن من المستشرقين الغربيين من ذهب إلى حد تشبيه حالة الفناء عند المتصوفين المسلمين بحالة تسمى نيرفانا عند البوذيين الوثنيين وهي الحالة التي يتوهم هؤلاء أنها نتيجة تعذيبهم أنفسهم حتى تتلاشى وتمحق عنهم فلا تعود النفس إلى صاحبها أبداً إذ يزعمون أنه ينقلب فيصير بوذا بذاته أي إلها آخر تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . ولست بصدد إظهار ما في هذه المزاعم الوثنية الوهمية من الضلال والمخالفة للتعاليم الدينية الحقة . وإنما أقول أن فناء السالك المتصوف غير هذا إذ معناه فناؤه عن نفسه وصفاته الحيوانية الأرضية حباً في ذات الله بالتزام التهذيب لا التعذيب ومتى تم له هذا الفناء أشرف به على طور لا يشهد معه في الوجود إلا الله حتى ولا نفسه التي بين جنبيه فلا يرى وجوداً إلا لواجب الوجود وحده وأما وجود سواه أيا ما كان فهو وجود مجازي غير ذاتي لقبوله العدم والفناء. أما الوجود الحقيقي الذاتي فهو للذات العلية الأبدية الدائمة البقاء وحدها .

وتلك المشاهدة لا تحصل بحاسة البصر بل تحصل بعين البصيرة أي بنور ينبعث في القلب انبعاثا إلهيا إذ تكون الحواس الظاهرة كلها في غيب عن نفسها كما يحدث لمن يدخل على ملك ذي شوكة وسلطان فتملكه الهيبة والجلال إلى حد أنه لا يرى شيئا قط مما في بيت الملك من رياش وغير رياش ولا يرى أحداً ممن يكون جليساً للملك حين دخوله عليه حتى ولا يعلم من أمر نفسه شيئا حين دخوله على حضرة الملك وذلك لاستيلاء الذهول كله عليه .

فهذا الأمر مشاهد في أمور الخلق فكيف بنا وحديثنا يدور حول الفناء

فى الخالق . ثم أن السالك بوصوله إلى مقام الفناء الذى وصفنا طرفا منه يتحقق له قول النبى عليه السلام لأصحابه موتوا قبل أن تموتوا أى موتوا عن رؤية وجودكم واختياركم واعتمادكم على حولكم وقوتكم لتعلموا أن الوجود والاختيار هما فى الحقيقة وقف على الله الواحد المختار وإنكم وإن زرعتم الزرع بأيديكم فإن الزارع هو الله ولكنكم أسباب وقد يخلق الله بسبب ويخلق أيضا بلا سبب فهو مسبب الأسباب ورب الأرباب وهذا ما ترونه كشفا وعيانا بعد انقضاء أجلكم فى الدنيا أو يكون الحال كما وصفه الله فى القرآن بقولة تعالى (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد).

وبعد أن يفيق الطالب من سكر الفناء ينتقل تواً إلى مقام يسمى مقام اللقاء ويعرف عند الصوفيه أيضاً بمقام (الوصول) أو المشاهدة والمكاشفة ومن ذلك قولهم فى مواضع كثيرة من كتبهم فلان الواصل إلى الله وهذا المقام حالة وراء العقل المجرد يعجز القلم عن وصفها وتدق الافهام عن تصور كنهها إذ هى بمعزل عن نطاق المدارك العقلية لأنها حالة ذوقية روحية لا تعلق العقول بها إلا بأن تقر بجواز حصولها وعدم استحالتها ومثلها بالنسبة إلى المدركات العقلية كمثل ما يؤكل وما يشرب بالنسبة إلى حاسة البصر فكما أن هذه الحاسة لا تتعلق إلا بالمرئيات دون الأذواق إذ إدراك الأذواق من شأنها ولا من واجباتها بل هو مقصور على حاسة الذوق وحدها فكذلك المواجيد الروحية والأذواق الباطنية القلبية لا تدرك بالعقول والافهام . وإنما تدرك بنور البصيرة وطهارة الألباب .

وقد تلبث حاله الفناء التى أسلفنا ذكرها مقدار لحظة واحدة قد تطول أكثر من لحظة وكذلك حالة اللقاء أو المكاشف قد تدوم ساعة أو أكثر من ساعة حيث يعود السالك بعدها برضوان الله وفضله إلى نفسه ولكن ليس إلى نفسه الأولى الأمارة بالسوء التى كان يجاهد فى تهذيبها وصقلها بمهذبات الشرع ويحاول قهرها وتحاول قهره ويسعى فى ضبطها ضمن حدود الشريعة وهى تأبى إلا الغلبة عليه والخلاص من قهره بل يعود إلى النفس الرضية المرضية المهذبة الكاملة المطمئنة بالإيمان الراضخة لأحكام الشرع والدين . يعود الآن إلى مقام البقاء بالله أى مقام العزة الإنسانية المشروحة الصدر المستنيرة بأنوار التقوى والصلاح بعيداً عن الشوائب الشهوانية والحظوظ النفسية والصفات الذنيئة وأخصها العجب والزهو والكبر والرياء والنفاق والحسد والتطلع إلى ما فى أيدى الناس وقلة الرضى بما قسمه الله من الرزق .

يعود ليشهد فيه الخلق مثالا حياعلى صدق روح الإسلام وتكفله بأن يبلغ النفس

البشرية أقصى ما تتوق إليه من الكمالات والرقى الروحى إذ يصير قلبه مليئا بالصدق والمروءة والنخوة والطهارة والصفاء والعطف والرأفة والحنو على عباد الله بل على الخلائق جميعا حتى الطير والحيوان الأعجم يعطف عليه ويرأف به حتى لقد قال فى وصف هذه الحال مولانا العارف بالله سيدى محى الدين العربى أبياتا منها قوله قدس الله سره : —

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لنيران وكعبة قاصد ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب ذينى وإيمانى

وقد أراد سيدى جلال الدين الرومى تصوير حالة الوصول إلى الله بعد بلوغ مرتبة الفناء فى كتابه المسنوى شعراً بالفارسية هذا معناه :

« توهم المحب أنه قد فنى فى محبوبه فلما اهتدى إلى بيته بعد طول السير والجهاد وقف بالباب فدق عليه يطلب الاذن فى الدخول فسمع من الداخل صوتا يناذى : من بالباب ؟ فقال المحب أنا بالباب فقال الصوت داخل البيت : كلا كلا أن هذا لايسعنى ويسع أحداً سواى . وظل الباب مغلقا كما كان فأطرق المحب مليا فأدرك أن ما حجبه دون الاذن له بالدخول إلا شعوره بوجود نفسه معه فعاد أدراجه وعاود جهاده ثم رجع بعد عام يقرع الباب فعاد الصوت يسأل من بالباب ؟ فقال أنت أنت الذى هنا وأنت أنت الذى هناك وأنت وحدك ملء الوجود ولا موجود سواك . وهنا فتح الباب على مصراعيه فدلف منه المحب ليحظى بوصال الحبيب » .

وبهذه الصورة الشعرية الطريفة أمكن للعارف جلال الدين أن يصور لنا كيف أن سلوك سبيل الصوف الحق ينيل النفس المتعطشة أقصى ما تصبوا إليه من الرقى الروحى .

* * *

هذا ما وسع المقام ذكره من الإلمام ببعض أطراف التصوف فى الاسلام إجمالا .وعسى أن تتاح لى فرصة أخرى لأزيد الموضوع جلاء وتفصيلا .